IJSSP

المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الثامن – العدد الأول – البحث الثاني (ص: 23 - 30)

15 – كانون الثاني – 2021 م

www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

[الدين والأخلاق والسياسة في فلسفة مكيافيلي]

[إعداد الباحث: محمد أحمد عبد اللطيف]

[جامعة القاهرة – كلية الاقتصاد والعلوم السياسية – الفكر السياسي]

ملخص الدراسة:

تمثل فلسفة مكيافيلي إحدى أهمّ ركائز الفكر السياسي الغربي الحديث، حيث وضعت أفكاره الأساس لعلاقةٍ جديدة بين السياسة وبين الدين والأخلاق، وبعيداً عن ارتباط السياسة بالأخلاق كما في الفلسفة اليونانية، وعن ارتباطها بالدين خلال العصور الوسطى، فقد أسست فلسفة مكيافيلي للسياسة كعلم احترافي، يتمحور حول تحقيق الأهداف والنتائج المطلوبة، ومن خلال هذا المنظور تتحدد وضعية الدين والأخلاق، حيث يدورا في فلك ذلك الأصل المصلحي للسياسة، ولا يكتفي مكيافيلي بالفصل بين السياسة والدين والأخلاق – كما يروّج غالب الكتاب –، وإنما يذهب إلى أبعد من ذلك – كما يظهر في مؤلفاته -، حيث يجعل من الدين والأخلاق مجرد أدوات يستعين بها الحاكم لتعزيز سلطته والحفاظ على استقرار المجتمع.

كلمات مفتاحية: مكيافيلي - عصر النهضة – الفلسفة الواقعية - الدين والسياسة – العلاقة بين السياسة والأخلاق – الفكر السياسي الغربي.

[Religion, Morals, and Politics in Machiavelli's Philosophy]

[**Mohammed A. Abdul Latif**]

Abstrct:

Machiavelli's philosophy represents one of the most important pillars of modern Western political thought, as his ideas laid the basis for a new relationship between politics and religion and morals, and far from the link between politics and morality as in Greek philosophy, and from its connection with religion during the Middle Ages, it established Machiavelli's philosophy of politics as a professional science, centered around Achieving the desired goals and results, and it is through this perspective that the status of religion and morals is determined, as it turns in the orbit of that reformist origin of politics. Machiavelli is not satisfied with the separation between politics, religion and morals - as most of the book promotes - but rather goes further - as it appears in his books - As it makes religion and morals mere tools that the ruler can use to consolidate his power and maintain the stability of society.

Keywords: Machiavelli - the Renaissance - Realist Philosophy - Religion and Politics - The relationship between politics and morals - Western political thought.

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الثامن – العدد الأول – البحث الثاني (ص: 23 - 30)
15 – كانون الثاني – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

مقدمة:

لم يحظ مفكر بهذا القدر من الانتقاد والكراهية ثم بهذا القدر من التقدير والاهتمام كما حظي مكيافيلي، فقد وجّه له معاصروه أشدّ كلمات السباب والهجاء، ولم يمض إلا قرن من الزمان وبدأ كثير من الباحثين يعيد النظر في تقييم فلسفة مكيافيلي، وسرعان ما نال من التبجيل – وربما التقديس- ما لم يكن يحلم به هو نفسه، واعتبره بعض المفكرين مؤسس علم السياسة الحديث، باعتباره أول من فصل الدين والأخلاق عن الظاهرة السياسية، ولا تزال أفكاره حيةً إلى اليوم، ولا سيما خلال فترات الاضطراب السياسي، حينما تكون الحاجة ماسة إلى قوة السلطة التي يمكنها معالجة الأزمة وإعادة بناء المجتمع، ولا شك أن نشأة مكيافيلي وخبراته العملية وظروف مجتمعه كان لها أثر كبير في تشكيل فلسفته، والتي حاول من خلالها معالجة الأزمة التاريخية لبلاده خلال عصر النهضة، وهذا ما يمكن بحثه من خلال النقاط التالية :

أولاً: نشأة مكيافيلي، وظروف عصره.

ثانياً: الواقعية، ومحورية القوة في الظاهرة السياسية.

ثالثاً: دور الدين في الحياة السياسة.

رابعاً: طبيعة الأخلاق في فلسفة مكيافيلي السياسية.

أولاً: نشأة مكيافيلي، وظروف عصره

وُلِد نيقولو دي برناردو دي مكيافيلّي في 3 مايو 1469 في جمهورية فلورنسا بوسط إيطاليا، لأسرة فلورنسية عريقة، وقد عُرفت العائلة بنشاطها السياسي ومعارضتها لأسرة دي ميديتشي الحاكمة، ورغم ذلك فقد شغلت أسرته العريقة مناصب بارزة في التاريخ الفلورنسي، ويقرر بعض الباحثين أنّ المرحلة الأولى من حياة مكيافيلي – وحتى وصوله للمنصب العام – تندر المعلومات عنها بشكلٍ واضح، ولهذا يلجأ المصنفون إلى التخمين أو تعميم بعض المعلومات المحدودة، حيث يغلب الظنّ أنه تلقى تعليمه كمثقفي عصره من تلك الطبقة الأرستقراطية، كما نال ثقافةً واسعة في التاريخ الروماني، وقرأ بعض الترجمات اللاتينية للتراث الإغريقي القديم ، حتى صار يرى في كلّ نظام سياسي وفي كل حادثة في أيامه شبيهاً لذلك في تاريخ روما (أوبنهايمر، 2011، فراير، 1986).

وقد عاصر مكيافيلي عصر النهضة الذي تميز بانهيار النظام الإقطاعي ونشأة وحدات سياسية جديدة هي الدول "الإقليمية"، وضعف سلطة الكنيسة، وبدء خضوعها تدريجيا لسلطة الملوك، واقتراب حسم الصراع التقليدي الذي استمرّ لقرون طويلة لصالح السلطة الزمنية تدعيماً للنزعة المركزية للدول الإقليمية، ورغم انطلاق الشرارة الأولى لعصر النهضة من إيطاليا - ولا سيما في فلورنسا -، فقد عانت لفترة طويلة من التفتت السياسي، وذلك لعدد من العوامل، من أهمها وجود الكنيسة البابوية في روما، فقد حرص البابوات على بقاء إيطاليا بهذا الضعف خشية وجود حاكم قوي يسيطر على شئون الكنيسة، ونتيجةً لتمزقها السياسي وضعف قدراتها العسكرية، صارت إيطاليا مطمعاً لجيرانها وميداناً دائماً لصراعات القوى الأوروبية، كما ظهر ذلك بوضوح حينما أطاحت القوات الفرنسية بحكم آل ميديتشي عام 1494، لتنشأ حكومة ثيوقراطية جديدة بزعامة الراهب الشهير سافونارولا، وسرعان ما أطيح بها بعد إصدار البابا قراراً بحرمانه، ليتم إعدامه وحرق جثته (مجاهد، 2019، ديورانت، ب. ت.).

وفي عام 1498 أعادت فلورنسا تأسيس الجمهورية، وتم تعيين مكيافيلي أميناً لـ "مجلس الحرب"، وظلّ في هذا المنصب قرابة أربعة عشر عاماً ، ومن خلال موقعه السياسي من جانب أول، وخبراته الدبلوماسية العديدة من

جانب ثان، كان مكيافيلي قادراً على مراقبة سياسة أوروبا من الكواليس بالداخل، وكان في وسعه – بحسب دراسته التاريخية المتعمقة – أن يتنبأ ببعض التطورات المستقبلية،غير أنّ تقلبات الحياة السياسية في فلورنسا أطاحت بمنصبه بسقوط الجمهورية عام 1512م، فاضطره ذلك إلى مرحلة طويلة من العزلة والتأمل، وخلالها صنّف عدداً من الكتب، دون في اثنين منها فلسفته السياسية: كتاب "الأمير"، وكتاب "المطارحات"(كنج، 2007).

ثانياً: الواقعية، ومحورية القوة في الظاهرة السياسية

هجر مكيافيلي الرؤية المثالية، واعتمد الواقع والتاريخ أساساً لفهم وتحليل الظواهر السياسية، ولا سيما مع التأثير الكبير لأزمة إيطاليا السياسية، ونظراً لتركيزه على ما يحدث - وليس ما ينبغي أن يحدث – فقد رأى أن السياسة لا تعدو أن تكون علاقات القوة والسيطرة في كافة المجتمعات، ولهذا يمثل مكيافيلي أحد أهم فلاسفة القوة في الفكر الغربي، فالقوة هي أساس الاستيلاء على السلطة وتوسيع رقعة الإقليم، وبضعفها تتقلص سلطة الدولة أو يتغير النظام، فالقوة هي العنصر الأساسي في تفسير الظاهرة السياسية.

ويؤسس مكيافيلي ضرورة الاجتماع البشري على النظرة المتشائمة للطبيعة البشرية، فالإنسان أنانيّ بطبعه، وهذا ما يضفي أهمية بالغة لقيمة الأمن، وهو كذلك ما يبرّر وجود السلطة، إذ تستند فكرة السلطة على الأنانية المرتبطة بضعف الإنسان وعجزه عن تحقيق كفايته بمفرده، فطالما كان المرء حريصاً على حياته وممتلكاته، وعاجزاً عن الدفاع عن نفسه في مواجهة الآخرين، فمن الطبيعي أن يجتمع مع غيره لإنشاء مجتمع آمن، ومن الطبيعي كذلك أن يساند السلطة التي تؤمّن له احتياجاته الأساسية، فالطبيعة البشرية تقوم على العدوان والأثرة، مما يهدد بحدوث الفوضى إذا لم يكن هناك سلطةٌ قادرة على فرض الأمن. ويقرر مكيافيلي (2004) "أنه من الممكن أن نقول عن عامة البشر أنهم ينكرون المعروف، ويحبون المراوغة في الحديث ومراؤون" ، بل يجعل القاعدة الحاكمة للسلوك البشري : "أنّ الناس لا يفعلون الخير إلا إذا اضطروا إلى فعله بدافع الحاجة" (مكيافيلي، 1982)، ولهذا فإنّ "الواجب يدعو – عند تأليف الدول والتشريع لها – إلى اعتبار الناس جميعاً من الأشرار، وإلى أنهم ينفّسون دائماً عما في ضمائرهم من الشرّ عندما تتاح لهم الفرصة للتنفيس عنه" (مكيافيلي، 1982).
ويؤكد مكيافيلي أنّ السعي لامتلاك السلطة أمرٌ فطري لا يمكن إنكاره، ويؤكد أنّ "الرغبة في التملك أمرٌ طبيعيّ وعادي جداً، ومن يستطيع تحقيق ذلك يمدحه الناس ولا يلومونه" (مكيافيلي، 2004)، ولهذا فإنّ القوة والقدرة هي مدار الطموح السياسي والرغبة في السلطة، وبين هؤلاء الأقوياء القادرين يستمرّ الصراع حتى يتمكن بعضهم من الانفراد بالسلطة، ولهذا فإنّ "السيطرة على الأمور في الولايات الجديدة تتفاوت تبعاً لقدرات من يستولي عليها" (مكيافيلي، 2004)، ويجعل مكيافيلي من القوة والصراع محركاً للتاريخ، وذلك للتناقض الجوهري بين رغبة "العامة" وبين رغبة "النبلاء"، "وهما جماعتان توجدان في كلّ مدينة أياً كانت، وهما متعارضتان بالطبع، وهذا التعارض نتيجة لمحاولة عامة الشعب تحاشي تعسف الطبقة الأرستقراطية، ومحاولة هذه الطبقة أن تسيطر على الشعب وتبطش به " (مكيافيلي، 1982).

وتنطبق هذه القواعد حتى على الدعوات الدينية، ويسكّ مكيافيلي مصطلحين لتصنيف ذوي الدعوات الدينية : "الأنبياء المسلحون"، وهم الأقوياء القادرون على إلزام المجتمع بتعاليمهم، و "الأنبياء العزّل"، وهم أصحاب الدعوات الدينية المفتقدون لقوة الإلزام، ويقارن بين موسى -كنبيّ مسلّح نجح في صنع نموذجه-، وبين سافونارولا -كنبيّ أعزل-، فيقول : "لا بد أن نعرف أولا ما إذا كان المصلحون يعتمدون على أنفسهم أم أنهم يعتمدون على الآخرين، وبعبارة أخرى : هل هم قادرون على استمالة غيرهم لينفّذوا ما وضعوه لهم، أم أنهم يستطيعون فرضه ؟، ففي الحالة الأولى لن يحققوا سوى فوزاً ضعيفاً، ولا ينجزون شيئاً، أما إذا استطاعوا

الاعتماد على سطوتهم ولديهم القدرة على استخدام قوتهم فإنهم لا يفشلون إلا فيما ندر، وبهذه الطريقة استطاع جميع الأنبياء المسلحين أن ينتصروا فيما فشل فيه غير المسلحين منهم... ولو كان موسى و... عزلا من السلاح لما استطاعوا أن يجعلو الآخرين يحترمون دساتيرهم لفترات طويلة، وهذا هو ما حدث في عصرنا الحالي مع الأخ جيرولامو سافونا، حيث فشل فشلا ذريعاً في تطبيق شريعته الجديدة عندما بدأ الكثير من الناس في الكفر به، ولم يكن لديه القوة التي تمكنه من أن يجبرهم للعودة إلى الإيمان بما يقوم به، وعلى ذلك فإنّ مَن هم مثل هذا الرجل يجدون صعوبة كبيرة في شق طريقهم" (مكيافيلي، 2004).

وخلال عصر النهضة تنامى النزاع بين السلطتين الدينية والزمنية، فدفعت التغيرات الواسعة في أوروبا نحو تعزيز موقف الدولة في مواجهة الكنيسة، حيث دعا مارسيليو دي بادو – في عام 1324 – إلى نزع السلطة المطلقة من يد الكنيسة، لتصبح سمةً وخصيصة من سمات السلطة الزمنية، فالدولة - التي تتسامى على أفرادها – هي التي تحدد القوانين الضرورية لبقاء المجتمع، وللسلطة حقّ إكراه الجميع على الامتثال لتحقيق المصالح العامة للمجتمع (شاتلييه، 1984، صاغية، 1981)، وفي هذا الإطار الجديد – المتباعد عن الأسس الدينية والفلسفية – طرح مكيافيلي فلسفته – بحسب نظرية القوة -، فالسلطة إنما هي لأولئك القادرين على الاستيلاء عليها – بأية كيفية -، وتفضيله لنموذج الجمهورية في المطارحات إنما هو مستمدٌّ من ملاحظة أنّ الحكومات الشعبية أقلّ قسوة وإهداراً للمبادئ من الحكومات المستبدة.

ثالثاً: دور الدين في الحياة السياسة

كما تمثل علاقة السياسة بالأخلاق أكثر الجوانب فجاجة لدى قارئي كتاب الأمير، فإنّ علاقة السياسة بالدين عند مكيافيلي تمثل أكثرها حيرةً وغموضاً – وربما اضطراباً -، فبينما يستنكر دور الكنيسة وينتقد ممارسات رجال الدين، فإنه يبالغ في الثناء على الإمارات الكنسية، وبينما يعزو التفتّت السياسي إلى الدور السلبي للبابوات، فإنه يؤكّد أهمية الدين في الواقع السياسي، ولهذا تعددت مواقف الباحثين في الجمع بين هذه الأمور التي قد تبدو متعارضة، غير أنّ تتبع الظروف التاريخية من جهة، وواقع عصر مكيافيلي من جهة أخرى يفسران ذلك بشكل واضح، وذلك من خلال النقاط التالية:

1) الدين والماضي

استقرّ الفكر الكنسي خلال العصور الوسطى على اعتبار البابا هو ظلّ الله في الأرض، مما يحتّم على السلطة الزمنية تهيئة النظام الذي يحقق للأفراد خلاصهم الروحي، ومن هنا ارتبطت الدولة تاريخياً بالكنيسة، وهذا الأمر بذاته لم يكن محلّ انتقاد مكيافيلي، ولم يهاجم الكنيسة لأنها تدافع عن سلطتها الزمنية، بل لأنها لم تستخدم جميع قدراتها لإخضاع إيطاليا لحكمها، بدليل أنه نظر بكلّ إعجابٍ إلى ارتباط السياسة بالكنيسة في نموذج قيصر بورجيا، وأشاد بالدعم الكنسي لهذا الأمير الطموح، بل أمّل مكيافيلي تكرار ذلك النموذج في فلورنسا (ديورانت، ب. ت.)، وعلى هذا الأساس يمكن تفسير انتقادات مكيافيلي الحادة لموقف الكنيسة السياسي، لعجزها عن بسط سلطانها السياسي، مع حرصها على إضعاف باقي القوى الإيطالية، فـ " الكنيسة لم تكن في يومٍ ما قادرةً على احتلال إيطاليا بأسرها، كما لم تسمح لغيرها باحتلالها، وعلى هذا فقد كانت السبب في الحيلولة دون وجود إيطاليا تحت حكم رأس واحد، وجعلها موزعة بين عدد من الأمراء الذين جاءوا لها بالفرقة والضعف، حتى إنها غدت فريسة لا للأقوياء من البرابرة فحسب، بل لكل من يهاجمها" (مكيافيلي، 1982)، ولهذا جرّد الحملة على رجال الكنيسة وحمّلهم مسئولية ضعف إيطاليا في وقتٍ كان بمقدورهم فيه توحيدها، " فالكنيسة هي التي جزّأت إيطاليا وما زالت تحافظ على تجزئتها "(مكيافيلي، 1982).

2) الدين والحاضر

إلى جانب انتقاده للدور السياسي المضطرب للكنيسة، فقد انتقد كذلك الدور السلبيّ لكثير من رجال الدين، فقد كان مكيافيلي مؤمناً بضرورة الدور الاجتماعي والأخلاقي للدين، وبقدر تعظيم رجال الدين لتعاليمه والتزامهم بأحكامه بقدر رسوخ منظومة القيم الدينية والأخلاقية في المجتمع، ونظراً لاقتصار هذا الدور المحوري على رجال الدين، فقد ضاعف من غضب مكيافيلي ظهورهم على النقيض ذلك، وقيامهم بدور القدوة العكسية للمبادئ والأخلاق في كافة مستوياتهم (رسل، 1977).

كما امتدّت حملة نقد مكيافيلي إلى الجوانب الفكرية، فعاب على الكنيسة تصوير المسيحية كدين الضعفاء العاجزين، وانتقد غلوّ رجال الدين في قيم الرحمة والتسامح التي رسّخت رذائل المهانة والضعة كفضائل، " وقد مجّدت ديانتنا المتواضعين والميالين إلى التأمل بدلاً من تمجيد رجال العمل " (مكيافيلي، 1982)، مما خلّف آثاراً سلبيةً عديدة، فرغم أنّ الدين يسمح للناس بتمجيد أوطانهم والدفاع عنها، وهذا يتطلّب منهم تدريب أنفسهم وإعدادها للدفاع، إلا أنّ هذا العامل قد أهمل في التربية الدينية إهمالاً مؤسفاً، مما أدى إلى اختفاء تعشّق الحرية، كما انتقد نظرة الكنيسة إلى الدنيا كدار حسرة وشقاء تبعد الإنسان عن ربه وتلهيه عن غايته الأولى في الحياة بالخلاص، وأعلن أنّ لوجود الإنسان على الأرض غاية ترتبط بعزيمته، فلا بدّ من إثراء شخصيته، فلم يحظ بصنعة الخالق الحكيم إلا ليجني من الدنيا خير ثمارها – ومنها الذكر والمجد -، وهذه الثمار لا يقطفها الأقزام الضعاف وإنما العمالقة الأقوياء (الزقزوقي، 1998)، مقرراً أنّ في قيم المسيحية ما يكفي لاستنهاض أبنائها لاستئناف أمجادهم، " ولو احتفظ حكام الدول المسيحية بالروح الدينية التي رسمها لنا مؤسس المسيحية، لكانت دول النصرانية وجمهورياتها في وضعٍ أكثر اتحاداً وأكثر سعادة مما هي عليه الآن " "(مكيافيلي، 1982).

ج) الدين والمستقبل

ساد الاعتقاد خلال العصور الوسطى بحاجة الإنسان إلى قانونين، قانون إلهي : للنجاة والسعادة في الآخرة، وآخر وضعي : لتنظيم وضمان سعادة الدنيا، وخلال عصر النهضة بدأ اختفاء الحدود بينهما، ورأى رواد تلك المرحلة أنّ الدنيا – وما فيها من الطبيعيات والاجتماعيات – تتبع نفس المبادئ والقوانين، فكانت دراسة مكيافيلي للظاهرة السياسية بنفس الروح التي اتبعها جاليليو بعد ذلك بقرنٍ في دراسته للظواهر الفلكية، وبهذا بدت المعاني الدينية الغيبية في نظره غير مفهومة، وفي إطار رؤيته الواقعية رأى أن يبقى الدين – وغيبياته وقوانينه – بعيداً عن تكبيل حركة السياسة بأخلاقياته المثالية، ولهذا لم تعكس كتاباته أيّ اهتمام بإثبات صحة الدين أو زيفه، فقد رأى أنّ الدين ليس مرغوباً فيه لذاته، وإنما كعنصرٍ ضروري في الحياة الاجتماعية، وبهذا يستمدّ قيمته من تأثيره على الحياة السياسية، فالدين هو خير أساس لتقوية الدول وحمايتها من الاحتلال الأجنبي، وكضرورة للمحافظة على استقرارها الاجتماعي، فالقيم الدينية تعمل على تهذيب نفوس المحكومين وتعليمهم طاعة القوانين التي يسنها الأمير.

ومن ثمّ ذهب مكيافيلي إلى تنحية القيم الدينية والأخلاقية عن الحركة السياسية، بل والعمل أحياناً بما يتناقض معها تماماً عند بحث الوسائل اللازمة لإنشاء الدولة أو المحافظة على السلطة فيها، ليتحول الدين من أساسٍ للنظام وحاكم للحكام إلى مجرد أداة بيد الحكام يستخدمونه لتعزيز سلطتهم السياسية، ولهذا أشاد مكيافيلي بـ "استخدام" روما للدين ليصبح المصدر الأساسي لعظمة الدولة وقوتها، و "تسخيره" للاستفادة به في حروبهم" "(مكيافيلي، 1982)

IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الثامن – العدد الأول – البحث الثاني (ص: 23 - 30)
15 – كانون الثاني – 2021 م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

رابعاً: طبيعة ومكانة الأخلاق في فلسفة مكيافيلي السياسية

ترتبط فلسفة مكيافيلي السياسية برؤيته المتشائمة للطبيعة البشرية، ورغم ترويجه للنموذج الجمهوري – كما في المطارحات-، فقد ألجأته أزمة مجتمعه الراهنة إلى الترويج لمرحلة انتقالية من الملكية المطلقة، فانحطاط الفضيلة الشخصية يجعل الحكم الشعبيّ أمراً مستحيلاً، فالأمن لا يكون ممكناً إلا إذا كان الحاكم قوياً، مما يلجيء في الحالات الاستثنائية إلى القوة الاستبدادية ، فإذا كان الأفراد أنانيون وسيئون فلا مناص من أن تكون الدولة سياجاً أخيراً لحفظ تماسك المجتمع، ولهذا لا يتحرّر الأمير من القانون فحسب، بل من القيود الأخلاقية، فلا يُحكَم على تصرفاته إلا من خلال نجاحها أو فشلها في تحقيق الصالح العام، فلسوف تعفيه النتائج حينما تُتّهَم الأفعال، وعندما تحسن النتيجة فسوف تحلّه دائماً من اللوم والتأنيب، وهذه الصراحة التي أدرجها مكيافيلي في نصيحته للحكام كانت السبب الرئيسي في السمعة السيئة لكتاب الأمير، حيث أقرّ مكيافيلي علناً باستخدام القسوة والغدر والقتل – أو أية وسيلة أخرى –، شريطة أن يستخدم الحاكم هذه الوسائل بقدرٍ كافٍ من الذكاء والسرية لتحقق غاياتها وتحفظ مصالح الدولة (سابين، 2010).

فقد ورث مكيافيلي واقعاً توثقت فيه علاقة السياسة بالدين على مدى عشرة قرون أطلق عليها مصطلح العصور المظلمة، والتي خلت من الإنجازات الفكرية والاقتصادية والسياسية، ولهذا كان النموذج المثالي للسلطة في رؤية مكيافيلي هو نموذج جمهورية روما، حيث خضع الدين للسياسة، فتحققت أعظم الأمجاد التاريخية لإيطاليا، ومع انهيار منظومة العصور الوسطى التي طالما نظرت إلى الكنيسة والدولة كسلطتين تشريعيتين لجماعة مسيحية واحدة سعى مكيافيلي إلى انتزاع الدولة من قبضة الكنيسة، وبناء أيديولوجية جديدة تحيّد الدين عن المجال العام، كأساس ضروري لتجاوز الصراع السياسي، ولا يعني هذا إلغاء دور الدين في المجتمع أو قطع الصلة بين السياسة والفضائل الأخلاقية، وإنما تستهدف فلسفته استخدام الدين كأداة ضرورية للأغراض السياسية المختلفة.

وعلى هذا الأساس تضمّن الأمير كثيراً من المعاني اللاأخلاقية، فهاجمها مَن نظر إليها كقواعد عامة، إلا أنّ كثيراً من المفكرين والباحثين – ولا سيما في العصر الحديث - قد اتجهوا إلى تأويل أطروحة مكيافيلي، معتذرين بأنه لم يرد بتلك الوصايا سوى الخير العام لبلاده في لحظةٍ حرجة من تاريخها، حيث يركزون على الفصل الأخير– ودعوته إلى تحرير إيطاليا - معتبرين إياه جوهر رسالة "الأمير"، وأنّ الكتاب كله إنما كان بمثابة التمهيد لذلك المطلب "القومي"، فلم يقل أنّ الغاية تبرر الوسيلة بمعنى أنّ للأمير أن يصل إلى الحكم كيفما شاء، أو أن يتصرف في الشأن العام بما يهوى، وإنما ركّز على تعديد الطرق المتاحة أمام الأمراء للارتقاء إلى الحكم والمحافظة عليه، فمن المقرّر أن مكيافيلي لم يهاجم الأخلاق في أيٍّ من كتبه، ولم يتخذ موقفاً مناهضاً للفضائل، إلا أنه لم ير لمبادئ الأخلاق جدوى عملية عند ربطها بواقع سياسي تحكمه المصالح، فنظر إلى المعارك السياسية كمباريات للشطرنج، ولهذا فعندما يضع أحد لاعبي الشطرنج خطةً أو يخدع خصمه بحيلةٍ ماكرة فإننا نعجب بمهارته، وهكذا نظر مكيافيلي وهو يشاهد ويحلل مباريات السياسة بما فيها من البراعة أو المكر، ولم يخطر بباله الاهتمام بشخصية اللاعب، وهل هو من الأرستقراطيين أو البرابرة، فسيّان كلّ ذلك في نظر مَن يهتمّ باللعبة لذاتها، فلم ينتبه في بحثه أنّ بيادق لعبته هم أناسٌ حقيقيون – لا مجرد بيادق شطرنجية -، وأنّ صالح هؤلاء البشر هو بيت القصيد من كلّ ممارسة سياسية (كاسيرر، 1975).

لقد نحّى مكيافيلي عن ذهنه إشكالية النموذج المثالي – التي طالما استفاض الفلاسفة في بحثه -، وقصر اهتمامه على ضبط المجتمع واحتواء أزماته، ليجعل من السياسة مجالاً أداتياً وتقنياً، لتفضي فلسفته لاحقاً – بعد إضافات هوبز – إلى عدم اعتبار الفضيلة غايةً سياسية يجب السعي لتحقيقها، بل أداةً في خدمة الدولة،

فالأخلاق شرط من شروط الدولة ليس إلا، وهذا يعني أنّ الأمير يمكنه أن يتظاهر بالفضيلة دون أن يؤمن بها أو يتقيّد بقيمها (ديورانت، ب. ت.، رشيد، 2000).

وبينما تقرر قواعد الأخلاق أنّ هناك أخلاقاً سيئةً بذاتها -لا يوجد غاية يمكن أن تبرّرها- ، فقد عارض مكيافيلي انطباق هذا المبدأ على عالم السياسة، ولا يعني ذلك أنه يعكس الخطأ إلى صواب أو الصواب إلى خطأ، وإنما يقرر بكلّ جرأة أنه إذا كان هدف الأمير هو أمن المجتمع وسلامته، فعليه القيام أحياناً بأعمال قد يستنكرها دعاة الأخلاق، ويؤكّد أنّ الغاية السياسية الطيبة تبرّر الوسيلة التي تعتبر خطأ من الناحية الأخلاقية، ويقصر ذلك على الحاكم العاقل الذي لا يستهدف سوى المصالح الوطنية عند المخاطر والأزمات، ولهذا فإن جوهر الفلسفة المكيافيلية لا يكمن في التفرقة بين عمل مقيّد بذاته وآخر مقيد بعوامل خارجية، وإنما التمييز بين مجال الأخلاق ومجال السياسة، ففي مجال الأخلاق يتمّ الحكم على التصرفات ذاتها، بينما السياسة هي مجال الأفعال الذرائعية التي يجب ألا نقيمها إلا بقدرتها على تحقيق الأهداف، فالعبرة عنده بالأسباب والنتائج – كأية حرفة -، فكلّ ما يحقق المصلحة السياسية مشروعٌ – بغضّ النظر عن تقييمه في مجال آخر -، وبهذا يعتمد مكيافيلي الحلّ الثنائي بالفصل بين المعايير السياسية والأخلاقية، واستقلال مجال كلّ منهما عن الآخر، ولهذا يثني على مَن خالف قيم الأخلاق ترجيحاً لقيم السياسة الذرائعية، "وذلك لأنه في سبيله للحفاظ على الدولة قد يضطرّ للقيام بأعمالٍ ضدّ الوفاء والإحسان والصفات الحسنة والدين" (مكيافيلي، 2004)، "إذ عندما تتوقف سلامة البلاد كلها على القرار الذي يتخذه المرء، فمن الواجب أن لا يهتمّ هذا الإنسان بقضايا اللطف والقسوة ولا بالإطراء أو المذلة، بل عليه أن يتخلى عن كلّ اعتبار آخر، وأن يسلك المسلك الذي يؤدي إلى الحفاظ على حياة بلاده وحريتها بكل ما لديه من إخلاصٍ وحماس" مكيافيلي، 1982)، ولهذا ركّز مكيافيلي على الأخلاق، وتكرر ورود مصطلح "الفضيلة" **Virtu** في كتاباته، غير أنه لا يشير بهذا الوصف إلى معاني الخير والصدق والأمانة و...إلخ، وإنما يقصد بـ "الفضيلة" : الكفاءة والقدرة على خدمة وتحقيق الصالح العام، دون امتداد المصطلح إلى أي معنى ديني أو أخلاقي، وذلك لأنّ مكيافيلي لا يصف بالفضيلة إلا مَن أحسن أداء وظيفته، ففضيلة الحاكم عنده هي الإقدام والعزيمة الماضية، وأوجبُ واجباته حفظ مصالح البلاد، وسبيله إلى ذلك قوة نظامه وقدرته على السيطرة (أدهم، 1974).

ولا يُنكر مكيافيلي أهمية الفضائل الأخلاقية، كجزء لا يتجزأ من شرعية السلطة، ولهذا أثنى مكيافيلي على اتصاف الأمير بالكرم والصدق والرأفة والاستقامة – ولا سيما إذا كان حديث عهد بالإمارة، إلا أنّ أوضاع الحياة وظروف السياسة قد تحول دون التزامه بهذه الفضائل في كلّ الأحوال، ولهذا فإنّ على الأمير أن يتعلم كيف يسيء أحياناً – عند اضطراره - وكيف يتجنّب الملامة إذا أساء، وإلا فإنّ الإصرار على التزام تلك الفضائل عند الأزمات قد يأتي بالكوارث، وبهذا يختلف التقييم السياسي عن التقييم الأخلاقي عند مكيافيلي، فيرى أنّ الفضائل قد يطرأ عليها من الملابسات ما يجعل التزامها رذيلةً، كما تغدو الرذائل في بعض الأحيان فضائل يجب العمل بها لضمان النجاح أو الأمن.

المراجع

أ) المراجع العربية

أدهم، علي (1974)، "مكيافلي بين الأخلاق والسياسة"، مجلة الثقافة ، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، العدد التاسع، يونيو ، ص 9.

ديورانت، ول وايريل (ب. ت.)، د. زكي نجيب محفوظ (ترجمة)، قصة الحضارة: نشأة الحضارة، ص ص 44-45، بيروت: دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع.

رشيد، العلمي الإدريسي، (2000)، "الحداثة: الأخلاق والسياسة"، مجلة فكر ونقد، العدد 25، يناير، ص ص 43-44.

الزقزوقي، محمد مختار (1998)، الأخلاق والسياسة، ص ص 59-61، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

سابين، جورج (2010)، د. راشد البراوي (ترجمة)، تاريخ الفكر السياسي: الكتاب الثالث، ص ص 38-42، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

شاتيليه، فرانسوا (1984)، د. خليل أحمد خليل (ترجمة)، تاريخ الأفكار السياسية، ص ص 36-46، بيروت، معهد الإنماء العربي.

صاغية، حازم (1981)، "نيكولو ماكيافيللي: مدخل اولي"، مجلة الفكر العربي، المجلد 3، العدد 22، أكتوبر، ص 406.

كاسيرر، إرنست (1975)، د. أحمد حمدي محمود (ترجمة)، الدولة والأسطورة، ص ص 193-195، 28-29، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ماكيافيلي، نيقولو (1982)، خيري حماد (ترجمة)، مطارحات مكيافيلي، الطبعة الثالثة، ص ص 224، 224، 56-57، 269، 268، 437-438، 269-272، 433-441، 748-749، بيروت: دار الآفاق الجديدة.

ماكيافيلي، نيقولو (2004) أكرم مؤمن (ترجمة)، الأمير، ص ص 86، 30، 38، 40-41، القاهرة: مكتبة ابن سينا للطبع والنشر والتوزيع.

مجاهد، حورية توفيق (2019)، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، الطبعة الثانية، ، ص ص 340-342، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

ب) المراجع الأجنبية

Freyer, Hans (1986), Machiavelli, Pp. 12-13, München, Acta Humaniora VCH.

King, Ross (2007), Machiavelli: Philosopher of Power, Pp. 9-11, New York, Harper Collins.

Oppenheimer, Paul (2011), Machiavelli: A Life Beyond Ideology, Pp. 4-6, New York, Continuum International Publishing Group.